ديرتي

(بلاد ثقيف جنوب الطائف)

تلك الجبال الشاهقة والأودية الخصبة والوهاد الواسعة والطبيعة الساحرة والهواء العليل .

ديرتي : تلك الوجوه البريئة والنفوس المطمئنة والقلوب البيضاء والعقول المستنيرة والتاريخ المشرِّف؛ والغد المشرق.

ديرتي: ذلك المجتمع الكبير المكون من نسيج واحد وأصل واحد وفكر واحد وإنسانية طاغية لا تعترف بالحواجز والحدود ولا تعكرها مشكلات الحياة ولأجواء العيش .

ديرتي : يقول التاريخ وتقول كتب السِّيَر ويقول الأجداد ونقول نحن إن الموطن الأصلي لثقيف هو الطائف وأنها قبيلة هوازنية عدنانية عاشت في وادي (وج) بالطائف فقد كان قرية كبيرة تسكنها ثقيف برجالها العظماء الذين شهد لهم القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى :(وَقَالُوْا لَوْلَاْ نُزِّلَ هَذَاْ الْقُرْآنُ عَلَىْ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ(٣٦))[1] .

وكما يقول أكثر المفسرين إن المراد بالقريتين مكة والطائف والمقصود بالرجلين على أكثر الروايات هما : الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف .، وهذه شهادة يعتز بها الثقفيون إلى يوم يبعثون .

ويقول أبو طالب بن عبدالمطلب :

منعنا أرضَنا من كلِّ حيٍّ كما امتنعتْ بطائِفها ثقيفُ

---

(١) سورة الزخرف .

أتاهم معشرٌ كي يَسلبُوهم فحالتْ دونَ ذلكُمُ السيوفُ

ويقول التاريخ : إن الرسول صلى الله عليه وسلم زار الطائف في بداية البعثة المحمدية وعرض الإسلام على ثقيف وامتنعوا ولم يقبلوا بما يقول حتى يتأكدوا من صدق دعوته ولاسيما بعد أن رأوا أن الأقربين له من أبناء عمومته القرشيين رفضوا دعوته وكذبوه وحاصروه وآذوه فوقر في نفوس الثقفيين أنه مادام أن أبناء عمومته رفضوه فمن باب أولى ألا يصدقوه حتى يتأكدوا من صدق دعوته .

وبعد أن اطمأنوا إلى صدق دعوته أعلنوا إسلامهم عن طريق وفد منهم توجه إلى المدينة المنورة فكتب لهم الرسول صلى الله عليه وسلم عهدا على الطائف ؛ فاستقر بعضهم في الطائف وما حولها وتسمّوا بأسماء أسر منهم ، وانتقلت مجموعة منهم إلى ما يعرف الآن بثقيف ترعة التي أتحدث عنها.

ديرتي : كانت قبل سنوات طويلة بسيطة متواضعة في كل مرافقها ومظاهر الحياة فيها ؛ وتفتقر إلى الحد الأدنى من متطلبات الحياة فلا تعليم ولا صحة ولا أمن ولا استقرار ؛ ولا حتى لقمة عيشة هنيئة.

ديرتي: كان الجهل يلفها بظلاله والمرض يفتك بأهلها في غير هوادة لمراعاة لطفولة صغير ولا كهولة كبير ؛ ولا سلطة لغني على فقير فجميعهم فقراء إلى حد الكفاف .

ديرتي: كان أهلها يوفرون لقمة العيش من خلال الاشتغال بالزراعة وتربية المواشي ويقنعون بالمتيسر من إنتاجهم الزراعي والحيواني ولا يطمعون في أكثر من سدِّ احتياجاتهم اليومية البسيطة يظهر كل ذلك في ملبسهم ومشربهم وأسلوب حياتهم العامة .

ديرتي : كان أهلها يتقاسمون لقمة العيش ويساندون بعضهم بعضا في أعمالهم اليومية في جو من الألفة والقناعة والصبر على قسوة الحياة والتأقلم معها فتعلموا الصبر وقوة التحمل فظهر ذلك في أفكارهم وأسلوب تعاملهم مع الغير .

ديرتي : كان أهلها يُنهون خصوماتهم ومشكلاتهم وخلافاتهم واختلافاتهم بالمفاهمة والمصالحة والتحاكم إلى شيوخ القبيلة وأعيانها وينصرون بعضهم بعضا في الخير والشر ؛ كل ذلك لعدم وجود الأجهزة الحكومية المعنية التي تنظم حياتهم وترعى شؤونهم ؛ وغالبا ما تكون أحكامهم منضبطة وفق قوانين متعارف عليها تراعي حقوق الجميع وتنصف المظلوم من الظالم .

ديرتي : كانوا يتعاملون مع جيرانهم من القبائل المجاورة معاملة فيها الكثير من الاحترام وتبادل المنافع مع شيء من القسوة والشدة والجفاء أحيانا؛ تبعا للمواقف والظروف ؛ ولكن الجميع يخضعون لقوانين قبلية تنظم العلاقات بين القبائل .

ديرتي : كان أهلها يعالجون مرضاهم بالطرق البدائية المتوارثة كالكي والحجامة وما شابهها؛ و قد يُترك المريض على فراشه إما أن يشفيه الله أو يموت كما يموتٍ البعير على فراشة حسب مقولة خالد بن الوليد المشهورة ؛ بعيدا عن الطب الحديث لعدم وجود مستوصفات أو مراكز صحية أو حتى أدوية موجودة .

ديرتي : كانت الأمية تضرب أطنابها بين أفراد المجتمع شأنهم في ذلك شأن معظم أفراد الشعب السعودي آنذاك فلا يوجد حتى ولو رجل واحد يستطيع أن يقرأ سطرا واحدا لكنّ عددا لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة هم الذين يحفظون بعض قصار سور القرآن الكريم إما لأنهم سمعوها من آخرين أو تعلموها في بعض المساجد ؛ وكانوا يعتمدون على المشافهة في نقل الأخبار والمفاهمات بين الناس وتبادل المعلومات التي لا تتعدى اهتماماتهم

الخاصة وليس بينهم من يجيد الكتابة ومن يستطيع القراءة وشيئا من الكتابة يسمونه (المطوِّع) وينظر إليه على أنه أقل درجة من بقية رجالات مجتمعه الأميين ؛ حسب النظرة المجتمعية آنذاك

ديرتي : بالرغم من قلة ذات اليد إلا أنهم لا يتوانون عن إكرام الضيف بما يتيسَّر لديهم من الطعام وفي بعض الأحيان يقدمون الذبائح لضيوفهم حسب منزلة الضيف ومقامه الذي يرونه ، وللضيف حرمته واحترامه فجميع حاجاته محفوظه وحقوقه مكفولة حتى يغادر مقر الضيافة .

ديرتي : كان بعض رجالها ينزلون إلى مكة المكرمة للعمل في خدمة الحجاج مع المطوفين أو في أعمال يدوية أخرى مقابل مبالغ مالية زهيدة لكنهم والحالة هذه أفضل من غيرهم ممن لم يتوجهوا إلى مكة ، ويعتبرون موسم الحج موعدا لتسديد الديون ؛ والتجار هم الذين عادة من يوفرون للأهالي بعض احتياجاتهم اليومية مقابل ما يجنونه من ثمار أشجار اللوز التي كانت في فترة زمنية سابقة تنتج محصولا وفيرا يعد ثروة زراعية لها اعتبارها وشهرتها عند أهل المنطقة وما حولها من القبائل الأخرى .

ديرتي : بالرغم من الجهل المنتشر وعدم معرفة الناس بأمور دينهم إلا أن أهلها كانوا يعبدون الله حسب فهمهم وعلى قدر ما تعلموه من أمور العبادة ؛ وهم شديدو القناعة بأن كل شيء في الوجود إنما هو من عند الله ؛ وكان دخول شهر رمضان وثبوت رؤية عيد الفطر من الأمور التي تشق عليهم كثيرا قبل ظهور الراديو الذي أصبح وسيلة الإعلام الوحيدة التي يستقون منها أخبارهم .

أما صلاة العيد وخاصة الفطر فلا يتركونها ويؤدونها في القرى التي تقام في مساجدها أو في أرض فضاء قريبة من القرية لوجود من يستطيع في تلك القرية إمامة الناس ويلاقون في ذلك

عناء كبيراً في تنقلاتهم بين القرى المتباعدة مشياً على الأقدام .

ديرتي : كانت وسائل المواصلات فيها وهي الانتقالٍ من مكان إلى آخر رغم وعورة المنطقة وصعوبة مسالكها إما مشيا على الأقدام أو على (الحمير) وقد يستخدم بعضهم الجمال إن وجِدت لأن المنطقة وعرة المسالك لذا كانت تربية الإبل فيها أمرا صعبا .

ديرتي : كانت المرأة شريكة الرجل في كل أعماله سواء في رعي الأغنام أوٍفي الزراعة وساعد على ذلك أن اختلاط الرجال بالنساء كان أمرا مباحا مع المحافظة على الحشمة وخصوصية المرأة والتأدب معها حتى ولو كانت سافرة كطبيعة وعادة تعودها الناس في تلك الفترة ؛ كما كانت بعض النساء تقوم بما يقوم به زوجها وقت غيابه من تقديم واجب الضيافة حين قدوم الضيف إليهم ضمن حدود الأدب والاحترام .

ديرتي : في مسألة الزواج لم يكن لأي من الزوجين حرية الاختيار فقد لا يرى الرجل زوجته إلا بعد أن تدخل بيته ليلة الزواج؛ وسعيد الحظ مَنْ تكون زوجته من أهل قريته لأنه بالتأكيد قد رآها بحكم الاختلاط ؛ وتقام الولائم حسب إمكانات المتزوج وعادة ما تكون في المنازل يتعاون أهل القرية الواحدة في إعداد طعام العشاء وتقديمهٍ لضيوفهم منٍ القرى الأخرى المجاورة ؛ وعادة ما يكون المهر مبلغا يسيرا ؛ تبعا للحالة المادية المتواضعة للمجتمع كافة ؛ وتتم مراسم الزواج بصورة مبسطة في بيت الزوج وقد تستمر مراسم الزواج أكثر من يوم وليلة .

ديرتي : كانت تُمارَسُ بعض الشركيات من بعض الأشخاص كزيارة القبور للتبرُّك بها والاعتقاد في بَرَكة بعض الأشخاص والأماكن والأزمنة وأن لها خصوصية تنفعهم أو تضرهم وهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، وتتنافى مع الشريعة الإسلامية لكنها تحدث نتيجة للجهل .

ديرتي : يتعاون أهل القرية في بناء البيوت التي عادة ما تكون من الحجارة و (اللبن) وتسقيفها بالأخشاب والطين ؛ ومثلها حفر الآبار والأعمال الزراعية التي تحتاج إلى عمل جماعي .

ديرتي : كان الناس يعتمدون على النار في إضاءة منازلهم أو على بعض الوسائل البدائية مثل ما يسمى (الفانوس) أو(الإتريك)، وكلها تعمل بمادة الكيروسين ، وجميعها وسائل إضاءة بدائية لكنها كانت تفي بالحاجة وتعتبر نقلة كبيرة مقارنة بما كان قبلها من وسائل الإضاءة .

ديرتي : هكذا كانت ديرتي فيما أذكره من بداية معرفتي بالحياة في بداية السبعينات الهجرية وما قبلها كانت الحياة أشد قتامة في كل شؤون الناس .

ديرتي : مع أن الظروف المعيشية والاجتماعية كانت قاسية إلى حد كبير إلا أن القبيلة لم تكن لتخلو من الرجال الأفذاذ الذين منَّ الله عليهم بالفطنة والنباهة والنظرة المستقبلية المتفائلة ومحبة الخير للجميع والرغبة الأكيدة في إخراج الناس من غياهب الجهل وظلمته إلى فضاءات العلم ونوره لأن ذلك يعتبر الأساس في تغيير المجتمعات إلى الأفضل .

ومن قرية (قها) برز الشيخ (علي بن رابع) رحمه الله كأول رجل يفكر في نشر التعليم فاتجه إلى الملك عبدالعزيز رحمه الله يطلب افتتاح ثلاث مدارس في كل من (قها) وترعة والمجادرة لتخدم معظم أبناء بلاد ثقيف ولكن هذا المطلب لم يتحقق إلا في افتتاح مدرسة ابتدائية واحدة في (قها) سنة ١٣٧٢ للهجرة كأول مدرسة في جنوبي الطائف ؛ وتوافد عليها أبناء ثقيف طلبا للعلم حسب الإمكانات المتاحة وإن كان الأهالي ترددوا كثيرا في بداية الأمر في إلحاق أبنائهم بهذه المدرسة خوفا من تجنيدهم في الجيش السعودي لمحاربة اليهود في فلسطين الذين أعلنوا في تلك الفترة عن قيام دولتهم على أرض فلسطين مما أحدث رفضا عربيا شاملا وكان أهالي ثقيف لا يسمعون عن الحروب إلا في تلك الفترة بخلاف ما يحصل الآن من اقتتال بين العرب أنفسهم !!

وبطبيعة الحال لم يكن تخوف الأهالي في محله ؛ وسرعان ما اتضحت لهم الرؤية و توافد أبناؤهم على مدرسة قها الابتدائية طلبا للعلم .

وبذلك كانت نواة أَسَّسَتْ للعلم والتعليم ، ثم تتابع افتتاح المدارس بكل مراحل التعليم المختلفة في كل قرى ثقيف ؛ وتبعها في وقت لاحق افتتاح مدارس البنات فكان الاقبال عليها كبيرا لأن نظرة الناس بدأت تتغير ، فأصبحوا ينظرون إلى الأمور بطرق إيجابية .

ونتيجة لهذا التعليم المبكر في بلاد ثقيف تنافس الشباب من الجنسين في التحصيل العلمي حتى وصلوا إلى معظم مرافق الدولة وأجهزتها المتعددة في مواقع وظيفية راقية ومراتب عسكرية مرموقة فعملوا مع غيرهم من أبناء المملكة على وضع الأسس الأولى لنهضة المملكة فاستحقوا لقب الرواد .

كما أن من نتيجة التعليم المبكر في ثقيف أن جميع المواطنين فيها لم يكن بينهم في وقتنا الحاضر من لا يجيد القراءة والكتابة وتم القضاء على الأمية برغبة الأهالي ومساعدة من الحكومة أيدها الله .

ديرتي : بفضل من الله ثم بجهود حكومتنا أصبح في مجتمعنا الثقفي العدد الكثير من حملة الشهادات العليا في مختلف التخصصات والمعلمين والرتب العسكرية العليا وفيه الكثير من الأدباء والخطباء والشعراء والكتاب والمؤرخين ورجال الصحافة والإعلام ورجال المال والأعمال والصناعيين والحرفيين وغيرهم ممن جعلوا من بلاد ثقيف واجهة حضارية راقية .

ديرتي : ولأن المنطقة ذات طبيعة جغرافية جبلية صعبة المسالك إلا أن ذلك لم يحد من عزيمة شيوخ ثقيف وبعض الرجال البارزين وفي مقدمتهم الشيخ (أحمد بن محسن) الذي كانت له اليد الطولى في شق الطرق وربط القرى بعضها ببعض بمساعدة ومساندة من شيوخ ثقيف بشكل عام ؛ ومع ما في ذلك من تحد كبير أمام الشيوخ من حيث الطبيعة الجغرافية الصعبة وقلة

ذات اليد وعدم توافر وسائل العمل إلا أنهم وبتوفيق الله وعزيمة رجال ثقيف استطاعوا أن يحققوا ما أرادوا فارتبطت القرى بعضها مع بعض بطرق ممهدة صالحة للاستخدام بصعوبة ولكن الحاجة أقوى من كل العوائق .

وبعد وصول السيارات وبدأ الاقتصاد المحلي الزراعي يعطي نتائج مشجعة ولاسيما بعد أن أحضر الشيخ (أحمد بن محسن) بذور الطماطم من (فلسطين) التي عاش فيها حوالي أربع عشرة سنة ولم تكن هذه البذور معروفة عند الثقفيين ، لكنها أصبحت فيما بعد تدر عليهم مبالغ مالية كبيرة بعد ، أن توسعت زراعتها أسهمت هذه الأموال في تغيير الوضع الاقتصادي وتحسنه عند الأهالي فبدأت الحياة تدبُّ في كل مرافق بلاد ثقيف وعمرت المنازل المسلحة واقتنى الناس السيارات فلزم الأمر أن يصاحب ذلكٍ وجود الكهرباء التي رأى المواطنون أنهم في حاجة كبيرة إليها تبعا لتطوير أحوالهم المعيشية فكان لِهم ما أرادوا على يدي الشيخ أحمد بن محسن الذي سعى جاهدا لدى الأجهزة الحكومية المعنية لافتتاح شركة للكهرباء في بلاد ثقيف كأول شركة في جنوب الطائف ؛ وقد أحدث هذا المشروع نقلية نوعية في حياة الناس في بلاد ثقيف وامتد ذلك إلى القبائل المجاورة فيما بعد .

لقد صَاحَبَ هذه التطورات الرائعة افتتاح الكثير من المرافق والإدارات الحكومية الخدمية المختلفة من مستوصفات صحية ومركز تابع للأمارة ومحكمة شرعية وبريد ومركز للشرطة وإدارة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوسع في التعليم بمراحله المختلفة كل ذلك بفضل من الله ومتابعة من شيوخ ثقيف وتذليل كل العقبات التي كانت تقف في طريق بعض الخدمات كعدم وجود الأراضي المناسبة ؛ إلا أن الشيخ (أحمد بن محمد بن خوضان) رحمه الله كانت له أيادٍ بيضاء في هذا الجانب فتبرع بعدد من الأراضي من أملاكه الخاصة بترعة للإدارات الحكومية التي رغبت في الحصول على أراضٍ بدون مقابل

ونتيجة لهذه العوامل الظاهرة والمعروفة فقد أصبح الثقفيون يتمتعون بكافة الخدمات الحكومية الضرورية في ديارهم وعلى أراضهم بفضل الله ثم بفضل حكومتنا التي كانت تُلبِّي كل الطلبات وكذلك نتيجة للجهود التي كان يبذلها الشيوخ من غير من وردت أسماؤهم وهم الشيخ (سلطان بن حامد بن عابد) والشيخ (محمد بن ذياب) والشيخ (عبدالمعين البخ) والشيخ (أحمد بن حامدي) رحمهم الله جميعا فقد بذلوا جهودا جبارة في تذليل الكثير من الصعوبات التي كانت تواجه تنفيذ بعض الخدمات وسعوا جاهدين لدى الحكومة لتنفيذ بعض المشروعات العملاقة كطريق (اللهام) الذي يشكل العمل فيه تحديا كبيرا أمام أكبر الشركات وأكثرها استعدادا لشق الجبال الشاهقة وتكسير الصخور الكبيرة ؛ ولكن الله قيَّض لأهل هذه المنطقة رجلا لم تثنه كل الصعوبات والعقبات هو الشيخ (سلطان بن حامد) الذي على يديه تم افتتاح طريق (اللهام) الذي أصبح معلما في ربوع بلاد ثقيف ، وما ذلك إلا بتوفيق الله ثم بجهود حكومتنا أيدها الله بتوفير الأموال اللازمة

ديرتي : ومع توفر الخدمات على الأراضي الثقفية إلا أن تغير نمط الحياة والحاجة إلى التعليم العالي وحصول الكثير من الأهالي على وظائف حكومية مدنية وعسكرية وغيرها من الأسباب اتجهت الكثير من الأسر إلى الاستقرار في المدن الكبيرة فتناقصت أعداد المواطنين مما كان له الأثر الواضح في ضعف بعض المرافق الخدمية الحكومية فتمَّ إغلاق بعضها وضمِّ بعضها إلى قرى أخرى داخل بلاد ثقيف أو خارجها ؛ وصاحب ذلك أن الحكومة في حالة إعادة تأهيل الإدارات الحكومية وتصحيح وضعها على مستوى المملكة وفقاً لرؤية الدولة الطموحة ٢٠٣٠ ؛ وهذا الوضع أثار حفيظة الكثير من الثقفيين وأخذوا في المطالبة بافتتاح مشروعات خدمية جديدة أسوة بغيرهم من القرى المجاورة متناسين أن الحكومة رعاها الله أصبحت تعتمد على الإحصاءات في

تنفيذ مشروعاتها في الوقت الذي هجِر فيه الثقفيون ديارهم فقلت الأعداد وانخفضت الإحصاءات وتبعاً لذلك أصبح من المتعذر افتتاح مشروعات خدمية جديدة كبيرة في بلاد ثقيف وهذا هو الواقع الذي يجب أن نعترف به وهو أيضا نتيجة حتمية لهجرة السكان من قرى ثقيف إلى المدن ورغبة الحكومة في دمج الخدمات بين القرى وحتى بين القبائل المتجاورة .

ديرتي : في ديرتي الآن جيل متعلم مثقف طموح من شيوخ القبيلة الذين لم تعدِ الظروف مواتية لهم كما كانت أيام آبائهم ؛ لأن يقدموا شيئا للمنطقة يُرضي طموحاتهم ويُحقق رغبات المواطنين من مشروعات خدمية تكميلية لما سبقها من خدمات تم إنشاؤها في بلاد ثقيف .

ديرتي : بلاد ثقيف تاريخها عريق فرجالها شاركوا في الفتوحات الإسلامية الواسعة ولم يرتدُّوا عن الإسلام كما فعلت بعض القبائل بل ثبتوا على دينهم وساعدوا على قتال المرتدين؛ وفي وقتنا الحاضر يشارك أبناء ثقيف في بناء نهضة دولتنا كل في موقعه وهم جزء لا يتجزأ من دولِاتنا العظيمة يدينون بالولاء لحكومتنا الرشيدة ويقفون معها قلبا وقالبا في المنشط والمكره .

ديرتي الآن : تاريخ يُروى ومجد تليد ؛ وخير وفير وعلم غزير وثقافة واسعة ؛ وأمن وأمان واستقرار وحضارة شملت كل مفاصل المنطقة.

وأخيراً : حفظ الله حكومتنا وأيَّدها بنصره ودفع عنها كيد الكائدين وحسد الحاسدين فهم من جعلنا في بلاد ثقيف كغيرنا من أبناء المملكة العربية السعودية حاضرة وبادية؛ نعيش هذا الأمن والأمان وهذا الرخاء وهذه السعة في العيش ؛ وهذه الحضارة الواسعة وهذا الرقي وهذه العزة والكرامة ؛ امتزنا بها عن سائر الأمم كيف لا ونحن في بلاد الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومنبع الرسالة .